ياقوت صروف

خليل ثابت بك

وكذلك يشاء القضاء أن يغير الدنيا لبني الآخرة بانتقال الأرواح الكريمة والنفوس النفيسة والدرر الغالية فلا يبقى منها هنا سوى حديث فضلها وذكرى جميل فعلها مقرونين بلوعة الحزن وغصة الاسى

وكذلك يفرق الموت بين الاحياء فاذا استراح به الراحلون أورث الاحياء الآسفين حنيناً اليه حتى ان تجد النفوس الواجدة الراحة التي سلبها وتظفر النفوس الحائرة بالعزاء الذي انتزعهُ بقسوة الداء وشره الجائع وعدوان المستبد الظالم

وكذلك تذبل زهرات الحياة النضرة كما تذبل أزهار الحدائق وتسقط الثمار البشرية الشهية كما تسقط ثمار الشجر اليابسة

وكذلك يضاءل نور الوجود في عصر الحياة كما يضعف نور الشمس في عصر النهار الى ان تأذن بالغيب وتتوارى بالحجاب وراء أفق يخيم عليه الظلام . أتشرق شمس الحياة فيها بعد كما تعود شمس العالم الى الشروق

كانت ياقوت صروف كاسمها في حسن منظرها وصفاء ذاتها وبهاء نورها وشموخ خلقها فكانت زينة بيت والديها وتاج دار زوجها وأسرتها حباها الله بذكاء نادر وطبع رقيق وخلق كريم وحنان بديل رقة وعذوبة في حديثها وتجلٍ في فعالها وعطفها على القريب والبعيد ورأفتها بالذين لم يرزقهم الله مثل الذي رزقها . وعزّز هذه المناقب والخلال فيها أنها نشأت في بيت فضل وطلبت العلم من الصغر على مربيات فاضلات ألسنَ فيها هذه المكارم والمحامد فحكفنَ على تربيتها وتهذيبها فكانت واسطة عقد أترابها وقطب بهجة مدرستها والمزيرة المدللة من معلماتها ومربياتها حتى اقترنت

بقربها العالم الكبير فانشأت بيتاً ظلّ في حياتها مطلع نور ومباءة فضل زهاء خمسين عاماً وكان مقصد أهل العلم والحجى ومحجة أنصار الأدب والثقافة من شرقيين وغربيين والجميع معجبون بما يشهدون وما يسمعون وما يلفون من حسن الاستقبال والضيافة وما يأنسون من سلامة الذوق وجمال المعيشة البيتية المتوجة بتاج الكمال والوفاق

وكانت فقيدتنا والدة رؤوماً لاولادها وأمّاً حنوناً للذين أتاح لهم حسن حظهم أن يفوزوا بعنايتها واهتمامها ولطالما لجأنا اليها نستشير برأيها ونهتدي بهديها ونفرّج همومنا بنصحها وعطفها وحنانها ولطالما عوّلنا عليها في حل المشكلات وتفريج الازمات وعلاج المعضلات . واذا كان قرينها الفيلسوف الكبير قد استطاع أن يبلغ ما بلغ من نجاح وما ادرك من مقام في دوائر العلم وعالم السياسة فمعظم الفضل في بلوغ مابلغ عائد اليها بما كفلت لهُ من المعيشة البيتية الهنيئة والسعادة المنزلية الكاملة حتى توفر على عمله معتمداً على السيدة الحكيمة المدبرة والزوجة الفاضلة التي قال الحكيم قديماً في وصفها ان ثمنها يفوق اللآلىء

وكان اعجاب علماء الشرق وادبائه من الذين كانوا يؤمون دار آل صرّوف بذكائها وثقافتها وسعة اطلاعها واتقانها لغة الانكليزية اتقاناً جعل كثيرين منهم يعتقد أنها انكليزية الاصل يضارع اعجاب علماء الشرق وادبائه من الذين كانوا يقصدون تلك الدار حيث العلم والنبي والثقافة ومكارم الاخلاق ومظهر الحياة الزوجية الكاملة التي رفرفت عليها السعادة بفضل المرأة الكريمة والعقيلة الفاضلة والأم الحكيمة

قالت لي سيدة شرقية من كرائم الفضائل لقد زرت معظم بلدان اوربا والشرق واكلت في اكبر الفنادق وفي بيوت عظماء كثيرين فما جلست الى مائدة طعام اشهى والذ من مائدة مدام صرّوف . فاذا أضيف الى حسن التنسيق وجمال الترتيب واتقان كل شيء بشاشة الوجه ورقة الحديث وحسن الاستقبال كان من المجموع صورة لا تنسى

وشبهتها سيدة أخرى كانت شديدة الاعجاب بها بربات القصور في الاقاصيص وعصور التاريخ الماضية بما كان يبدو عليها من سيماء الوقار وسموّ النفس مع رقة تجمل حسنها الذي لم يفارقها الى آخر أيام حياتها

وكتب كاتب انكليزي كتاباً من ثلاثين سنة عن مصر بعد زيارة لها فخصّ بيت صرّوف بفصل أعرب فيه عن حسن تقديره واعجابه وهذا الذي كتبهُ بعد ما غادر وادي النيل يؤيده

كثيرون من الذين أتيح لهم لقاء هذه السيدة الكريمة فتجلت لهم مناقبها ومواهبها فأكبروا نعمة الله وتحدثوا بما لقوا وما شهدوا ..

وقد ظلت فقيدتنا الى أيامها الاخيرة حافظة لجميع قواها شديدة العناية بمظهرها وحسن بزتها فكانت مثال ما تحب السيدة المثقفة ان تكون وكانت تتبع سير أمور العالم بدقة واهتمام بالمطالعة والسفر ومحادثة الذين يزورون بيتها الكريم فكانت من هذه النواحي مجاراة للشابات وظلت حافظة لنشاطها وعنايتها بما حولها الى آخر اسبوع من أسابيع حياتها الغالية فلا غرو اذا عظمت الخسارة بموتها ولا عجب اذا تحسر عليها عارفوها وافتقدها أسرتها الكريمة وسائر الذين عرفوا فضلها وقدرها

لقد ماتت ياقوت صروف ولكن ذكراها حية باقية بما أسدت من خير وما صنعت من جميل وما تحلت به من مكارم وما بذلت من عون وعطف فصورتها مرسومة في قلوبنا وفضلها منقوش على ألواح صدورنا وسنظل نعم باحصاء مآثرها ومناقبها وخلالها ونردد صدى مكارمها ومحامدها الى ان يجمع الله شملنا بها وبالذين سبقوها بعد عبور نهر الاحزان واجتياز برزخ الاسى والاشجان الى عالم ليس فيه موت ولا فناء

وأنا الذي كان موضع عطفها ورعايتها والذي غمرته بفضلها خمساً وثلاثين سنة والمدين لها بكثير مما أصاب في هذه الحياة وقد قامت على تربية أعز الناس اليه في طفولتها فكانت لها بمثابة الوالدة وعاملتها معاملة كريمة — فقدتها اليوم كما فقدت تلك العزيزة الحبيبة وقد تجاورتا الآن في القبر كما تجاورتا في هذه الحياة وكما ارجو ان تتجاورا في الآخرة . فاليوم اقف على القبرين أنوح وابكي واندب من خسرت واحصي ما اضمت ثم انقلب كاسف البال مقروح الكبد موجع القلب ولا معين لي الا البكاء ولا انيس الا الرثاء ورجاء اللقاء في عالم تمسح فيه الدموع وتسل فيه ادران الاحزان

ايتها الفقيدة العزيزة

لقد عصاني القلم فقصر عن توفيتك حقك من رثاء ووصف لفضائلك ومكارمك . وجمد الذهن فلا يلبي داعي القلب فحسبي ان ابذل ضريحك بسيل الدمع فذلك أشفى للنفس من قطرات المداد تسيل على الورق فلا تروي الغليل ولا تفي بالمرام . ورحمة الله عليك باضعاف ما أنا مدين به لك ولقربك وما أكنه لكما في صدري من محبة وحسن ذكرى وعرفان للجميل

رحمة الله عليكما كليكما والى اللقاء

خليل ثابت